ظاهرة المفعول المطلق عند أبي تمام

د. هادي حمودي

الخلاصـــة :

يدرس هذا البحث مظهرا من مظاهر التجنيس عند ابي تمام اغفله البديعيون والنقاد رغم اهتمامهم الواسع به ورغم ولع الشاعر بهـذا الفن ، ذلك هو المفعول المطلق • وهو الى هـــذا ظاهرة من الظواهر النحوية واللغوية التي حرصنا على تتبعها عند الشعراء •ولاستعمالاتها الكثيرة عند ابي تمام اثر واضح في التوجيه الشعري في شـعره بنى عليها العديد من صور التشبيه والتأكيد والوصف • انها ظاهرية نحوية وظاهرة بلاغية وظاهرة ادبية جديرة بالدراسة والبحث خاصة انها تقع عند شاعر يعد من اكبر شعراء العربية •

من الظواهر النحوية التي برزت لي وأنا ادرّس قصيدة « فتح عمورية » لابي تمام ظاهرة المفعول المطلق الذي ورد في ابيات متعددة منها • وقد لفت نظري وبشكل دفعني لان اعقد لها هذا البحث سؤال ذكي من أحد الطلبة حول هـذا البيت :

وبرزة الوجه قـــد أعيت رياضتها

كسرى وصدت صدوداً عن ابي كرب[1]

لماذا أكد الشاعر الصدود عن ابي كرب بالمفعول المطلق ولم يؤكد اعياء الرياضة لكسرى ؟

وتقدمنا في القصيدة المذكورة :

حتى اذا مخض الله السنين لهـــا

مخض البخيلة كانت زبدة الحقب[2]

وبيت ثالث ورابع وخامس ولـم ينقطع ورود المفعول المطلق في أبيات القصيدة . ورجعت الى ديوان ابي تمام اتصفحه لاتتبع هـذه الظاهرة ومدى وجودها في شعره . وعكفت على جمع كل الابيـات التي ورد فيها هذا المفعول فتهيأ لي قدر كبير جدير بأن يدرس كظاهرة من الظواهر النحوية واللغوية التي وقفت على دراستها عند الشعراء بدءا بالمتنبي[٣] . وتبين لي ان هذه الظاهرة شكل من اشكال التجانس اللفظي عند الشاعر وهو ابرز مظاهر البديع الذي اولع به ولعاً لا يكاد يخلو منه شعره الا في النزر اليسير[٤] .

المفعول المطلق في النحو :

يقع المفعول المطلق على ثلاثة احوال ، احدها : ان يكون مؤكدا نحو « ضربت ضرباً » والثاني ان يكون مبنياً للنوع نحو « سـرت سير ذي رشد » و « سرت سيراً حسناً » والثالث ان يكون مبينـاً لعدد ، نحو « ضربت ضربة وضربتين وضربات »[٥] .

ان هذا هو كل ما يهمنا هنا في هذا البحث من الاستعمال النحوي وامثلته للمفعول المطلق وذلك لان هذه الاستعمالات تلزم ذكر الفعل او شبهه (العامل) مع المفعول وهو ما كان يريده ابو تمام من استعماله للمفعول المطلق من ايراد العامل والمعمول من مادة لفظية واحدة . أما حذف العامل جوازاً او وجوباً في هذا الباب وما ينوب عن المصدر دون التجانس فأمور لا تدخل في هذه الظاهرة ولا علاقة لها بالبحث .

المفعول المطلق في البلاغة :

هل يمكن أن يعتبر المفعول المطلق مع عامله ضرباً من ضـروب التجنيس في البلاغة ؟

ان اغلب البلاغيين يشترطون في التجنيس : ان تكون اللفظـة واحدة باختلاف المعنى ، ولكنهم ذكروا ان التجنيس ضروب كثيرة منها

المماثلة[٦] . فهل يمكن اعتبار العلاقة اللفظية بين المفعول المطلق وعامله ضرباً من ضروب المماثلة ؟ أليست هي مماثلة لفظية ؟ وأن العامل والمعمول من جنس لفظي متماثل ؟ ويذكر ابن رشيق قول ابن الرومي:

له نائل ما زال طالب طالب ومرتاد مرتاد وخاطب خاطب

انه قريب من التجنيس ـ وليس محضاً ـ فقد ادخل الترديد والترديد نوع من المجانسة[٧] . أليس الفعل ومصدره يشكلان نوعاً من الترديد وبالتالي فهو قريب من التجنيس ؟ ويدخل ابن رشيق المضارعة والمماثلة والاشتقاق تحت « التجنيس المطلق »[٨] ويرى الآمدي ان المجانس من الالفاظ هو ما اشتق بعضه من بعض[٩] . وقد ضرب ابن المعتز امثلة لابي تمام في التجنس المشتق منها ما يدخل في باب المفعول المطلق[١٠] .

ان ولع ابي تمام بالتجنيس ولع لا حد له ، وهذا ما اخذه عليه النقاد ، حتى ان الآمدي عقد له فصلا ذكر فيه ما جاء في شعره من قبح التجنيس ، جاء فيه « رأى ابو تمام المجانس من الالفاظ شرفاً في اشعار الاوائل ، واعتمده وجعله غرضه وبنى اكثر شعره عليه ... والطائي استفرغ وسعه في هذا الباب وجد في طلبه واستكثر منه وجعله غرضه فكانت اساءته فيه اكثر من احسانه وصوابه اقل من خطئه »[١١] . ان ابا تمام لم يترك مجالا لضروب التجنيس الا طرقه ، والظاهر انه بعد أن استوفى جميع ضروب الجناس عاد الى الفعل ومشتقاته لينسج منه ضرباً من ضروب التجنيس أجبر البلاغيين على أن يستشهدوا به على انه واحد من هذه الانواع ، والا بماذا نفسر ما جاء في أول هذين البيتين المتتاليين في قصيدة عمورية :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر او نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الارض في اثوابها القشب[١٢]

وكثير من هذا ورد في شعره : اضافة الاسم الى جموعه ، مبتدأ يخبر عنه بمثله او بفعل من جنسه ، فعل فاعله من مادته ، الى غير ذلك من امثلة مختلفة في هذا المجال[١٣] .

ان استعمال المفعول المطلق عند ابي تمام احدى هذه الظواهر ، وهو مظهر من مظاهر التجنيس التي اولع بها . ولا شك انه اقوى هذه الظواهر لانه مصدر والمصدر غالباً ما يكون أقرب الى مجانسة عامله ويهم أبا تمام أن تكون هذه المجانسة قريبة قرباً لفظياً ولو أدى ذلك بنفس الوقت الى قرب في المعنى . ولكننا نتساءل : هل مال ابو تمام الى استعمال المفعول المطلق بقصد المجانسة فحسب دون أن يكون لذلك شأن آخر في البناء الشعري ؟ يخيل اليّ أن قصد التجانس اول ما اراده ابو تمام ، أما الشؤون الاخرى التي ترتبت على هذا الاستعمال فيستطيع الباحث أن يتلمسها وهو يبحث في هذه الظاهرة .

ان أول استعمال للمفعول المطلق هو للتأكيد ، والتاكيد لا يتحقق بشكل جيد بهذا التكرار خاصة في الشعر والا فما مبلغ التأكيد في هذا البيت مثلا :

جذبت نداه غدوة السبت جذبة
فخر صريعاً بين ايدي القصائد[١٤]

وفي قوله كذلك :

سخطت لهاه على جداه سخطة
فاسترفدت اقصى رضا المسترفد[١٥]

ان مثل هذا الاستعمال للمفعول المطلق ـ في تقديري ـ لا يحقق التوكيد المطلوب لقد استعمله ابو تمام اكثر من (١٧) مرة وهو في جميع هذه الاستعمالات لا يحقق غير رغبته في التجانس وغير أن يكمل به شطرته لا غير . ان اكثر ما ورد هذا الاستعمال في نهاية الشطر

الاول بعد أن يكون قد بدأه بالفعل كما هو ملاحظ في البيتين السابقين ، وبذلك ينقطع الشطر الثاني عن الشطر الاول انقطاعاً قد يكون تاماً أو مستأنفاً بالقاء استئنافاً يقترب او يبتعد نسبياً ، كما نجد في بعض الاستعمالات في نهاية الشطر الثاني في القوافي المنصوبة .

أما المفعول المطلق المبين للعدد فلم يرد في شعر ابي تمام بشكل متميز الا في أمثلة قليلة[١٦] ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن هذا الاستعمال لا يرقى الى المستوى الفني المطلوب في الشعر العربي كما أن اغلب البحور العربية قد لا تستوعب ذلك ، والعدد بحد ذاته قليل الورود عند الشعراء .

بقي ، بعد ذلك ، الاستعمال الثاني الاهم للمفعول المطلق وهو ما اريد به بيان النوع في حالتي الاضافة او الوصف .وهذا الاستعمال هو الغالب في هذه الظاهرة عند ابي تمام . ان هذا الضرب يحقق اضافة الى التجانس ضرباً من ضروب التشبيه ، وهذا يخدم المسار الشعري خدمة كبيرة سواء من حيث المعنى او من حيث المبنى اذ يأتي بمضاف اليه بعده او بنعت مفرد او جملة او شبه جملة « وابو تمام كثير استعمال الاضافات وهو مسرف في استعمال الصفات »[١٧] . وما ورد في هذا المجال مع المضاف اليه اكثر بكثير مما ورد مع النعت لان الترابط اللفظي بين المضاف والمضاف اليه اقوى مما بين النعت والمنعوت . وهذا لا شك يخدم البناء الشعري ويشد اجزاء البيت بعضها الى بعض ، اضف الى ذلك أن كثيراً من المفاعيل المطلقة وردت متأخرة في الشطر الثاني من البيت مضافة الى القافية وبذلك يصبح المفعول المطلق جسراً يوصل الشاعر الى قافيته بكل راحة ودون تلكؤ او توقف او قلق .

استعمل ابو تمام المفعول المطلق (١٨٨) مرة في شعره ، وهذا العدد يشكل ظاهرة تلفت نظر الباحث ولا شك ، خاصة ان ابياتاً غير قليلة في شعره ورد فيها المفعول المطلق اكثر من مرة ، من ذلك قوله :

ايرضخنا رضخ النوى وهو مصمت
ويأكلنا اكل الدَبا وهو جـــائع[١٨]

وقولــه :

فتى مات بين الطعن والضـــرب ميتـــة
تقوم مقـــام النصر ان فـــاته النصر[١٩]

وهو حين يورد مثل هذا الازدواج فانما يقسم كل واحد منهما في شطر واحد • وهذا نوع من الصناعة اللفظية التي اعتمدها ابو تمام في كل ابياته الى حد ما •

ان ابا تمام غالباً ما يقرب المفعول المطلق الى عاملـــه ليكـون التجانس واضحاً • فترى المعمول الى جنب العامل مباشرة وهوالغالب واما ان يكونا في شطر واحد • لقد ورد (١٣٩) مثـالا وقع العامل والمعمول كلاهما في شطر واحد ، (٦٨) منها وقعا في الشـطر الاول و (٥١) في الشطر الثاني بينما لم يرد اكثر من (٤٣) مثالا كان الفعل فيها في شطر والمفعول المطلق في شطر آخر • ان هذا لا يحقق رغبـة الشاعر في التجانس فحسب وانما يعيد جمال الفعل في جرسه ومعنـاه الى القاريء او السامع بنغمات متلاحقة قريبة بعضها الى بعض ، من ذلك قوله :

يـــود وداداً ان اعضاء جســـمه
اذا انشدت شوقاً اليهـا مسامع[٢٠]

او ربما اراد بهذا القرب ان يعطي جواً موسيقياً مناسباً للمعنى كقوله :

وجلد ضرغام يقدّ قدا[٢١]

هذا بالنسبة الى موقع الفعل من مفعوله • أما بالنسبة الى شكل المفعول المطلق فقد ورد مضافاً في (٨٥) موقعاً • ان ظاهرة الاضافـة النحوية هنا تحقق للشاعر ظاهرة التشبيه البلاغية ، من ذلك قوله :

طواه الردى طي الكتـــاب وغُيبت

فضائلـه عن قومـــه وفواضله[٣٢]

وهو تشبيه يميل اليه الشعراء لكونه خـالياً من اداة التشبيه . وهذا المضاف اليه مع المفعول المضاف يشكلان مقطعاً مهماً في البنـاء الشعري للبيت ولذلك اهتم الشعراء كثيراً بالمضاف اليه ، وابو تمـام واحد من هؤلاء بل هو في مقدمتهم ولذلك حرص ان يختار المضاف اليه اختياراً جيداً ليؤكد فيه غرض التشبيه اولا وليحقق فيه متانـة البناء الشعري ثانياً . من ذلك قوله :

يتغطى عنهم ولكنه تنصل اخلاقه نصول المشيب[٣٣]

وغالباً ما نلمس هذه الاضافة والقافية هي المضاف اليه وهذا ما وقع في اكثر من (٣٣) مثالا .

وما دمنا بصدد الحديث عن القافية فان المفعول المطلق يرد كثيراً في القوافي المنصوبة . ان (١٩) مثالا لذلك ورد في شعر ابي تمـام اكثرها كان الفعل الى جنب مفعوله من ذلك :

باســحق بن ابراهيم اضحـت

سماء الجود تنهمر انهمـارا[٣٤]

ومنـه قوله :

اسمع . اقامت في ديارك نعمـــة

خضراء ناضـرة ترف رفيفـا[٣٥]

كما اننا لا نعدم امثلة في القافية المجرورة وردت (أي) قبلهـا اخذت نيابة المصدر وبقي المصدر مضافاً اليه كقوله :

ذهبت يا محمد الغر من ايـا مك الواضحات اي ذهاب[٣٦]

او انه يستعمل (كل) مضافة الى المصدر القافية كقوله :

واحثث انا ملك السوابغ بينها حتى تجول هناك كل مجال[٣٧]

ولم يرد اكثر من ثمانية امثلة لـ (كل) مضافـة الى المصدر في جميع شعر ابي تمام ، اما (بعض) مضافة الى المصدر فلم اعثر الا على

مثل واحد في ديوان الشاعر كله[٢٨] . وقد يرد المصدر عند ابي تمام وقد ناب عنه المضاف ، وهو قليل ، من ذلك قوله :

آلت امور الشرك شر مآل واقر بعد تخبط وصيال[٢٩]

أما بالنسبة لعامل المفعول المطلق فغالباً ما يرد فعلا عند ابي تمام والفعل اكثر مرونة من غيره من العوامل الاخرى كما انه اوقع على اذن السامع ، هذا الى ان التجانس بين الفعل وبين مفعوله الاسم أجمل مما يكون عليه بين الاسم والاسم . لقد ادرك ابو تمام بحسه الشعري كل هذا ولذلك قلما يرد عامل المفعول المطلق غير فعل ، من ذلك قوله :

انا ذو عرفت فان عرتك جهالة
فانا المقيم قيامة العذال[٣٠]

بعد كل هذا تبقى جملة ملاحظات تلفت نظر الباحث في هذا المجال نذكرها مؤكدين اثرها في البناء الشعري ، اهمها :

اولا : يرد الفعل كثيراً اول البيت وغالباً ما يكون المفعول المطلق آخر الشطر الاول منه ، ويقع هذا حين يرد المفعول للتوكيد . ان للفعل بداية شعرية جيدة كما ان للمفعول نهاية شعرية جيدة ايضاً في بناء الشطرة الواحدة . الا ان هذا يفقد البيت الشعري تلاحم شطريته . والتلاحم هذا يبدو قوياً حين يرد الفعل آخر الشطر الاول والمفعول المطلق اول الشطر الثاني ولنا في شعر ابي تمام أمثلة عديدة لذلك . الا انه في هذه الحالة لا يترك المفعول المطلق دون اضافة او وصف . ان الوصف في هذه الحالة اما أن يكون جسراً الى القافية او ان يكون الوصف نفسه هو القافية ، فمن الاول قوله :

ليت الظباء ابا العميثل خبرت
خبراً يروي صاديات الهام[٣١]

ومن الثاني قوله :

ارسى بناديك النـــدى وتنفســت
نفساً بعقوتك الريـــاح ضعيفا[٣٢]

ثانياً : اقوى قصائد الشاعر واشهرها هي التي يكثر فيهـــا المفعول المطلق ، من ذلك قصيدة (فتح عمورية) التي وردت فيهـــا سبعة امثلة في سبعة أبيات . ان هذه الصناعة يجيدها الشاعر اجـادة تامة وهو يحاول جهده اخفاء التعمل فيها فتبدو أحياناً طبيعية .

ثالثاً : ان استعمال المفعول المطلق وعامله وما الحق به من اضافة او وصف انما يختلف من استعمال الى آخر ومن بيت الـــى بيت ، فليست جميعها على مستوى واحد من المقدرة الشعرية ، فقد يصيب الشاعر ويبدع في واحد منها وقد يهبط في غـــيره الى مستوى غـير معقول . ان ولع الشاعر بالتجنيس يفقده في احيان كثيرة بعض الالوان الضرورية في الشعر وهو مستعد لان يضحي بكثير من هـذه الالوان في سبيل هذا الولع .

رابعاً : من ابرز مظاهر ولع ابي تمام باستعمال المفعول المطلـق ما يبدو في القوافي المنصوبة لبعض قصائده ، ولعل خير مثـال لذلك قصيدة رقم (٣٥٥) حيث ورد المفعول المطلق قافية في اربعـة ابيـات منها[٣٣] .

خامساً : من اقبح ما ورد المفعول المطلق عند ابي تمام ذلك المضاف الى الضمير . انه يفقد الكثير من تجانسه والكثير من جرسه الموسيقي ويتجلى هذا القبح في بيتين وردا متتاليين في قصيدة واحدة :

ورجوت نائلكم رجـاءكم العـــلا
بتـــذكر العلجـــان واليعضيد
ونسيت ســوء فعـالكم نسيانكـم
آساسكم في كورة البشـــرود[٣٤]

اضافة الى الفاظهما الغريبة الاخرى .

سادساً : تتكرر ألفاظ للمصادر المستعملة اغرم بها الشـــاعر فجاءت اكثر من مرة في تضاعيف شعره، من ذلك : (تقوم ــ مقام)[٣٥]، (يمشي ــ مشية)[٣٦] ، (يقول ــ قول)[٣٧] ، (قـد ــ قدّ)[٣٨] ، (مات ــ ميتة)[٣٩] .

سابعاً : ان هذا المصدر الذي اولع به ابو تمام في باب التجنيس ليس من الضروري ان يرد مفعولا مطلقاً في اعرابه ، فقد يرد اما نائباً عن الظرف او مفعولا به او فاعلا او مبتدأ او خبرا او مفعولا لاجلـه او تمييزا او مجرورا بحرف جر او اضافة[٤٠] . وهو في كل هـــذه المجالات يشبع جانباً من ذلك الولع .

ثامناً : ان المفعول المطلق منصوب ، وهـــذا النصب خفيف في حركته ولذلك علينا ألا ننسى اخيراً هذه العلة ونحن نبحث في ســـر ولع ابي تمام باستعماله . لقد اعتبرت الفتحة اخف الحركات ولذلك احبها العرب وفضلوها في اللفظ على اختيها وعلى السكون ايضاً[٤١] . والشعراء اقدر من غيرهم على اكتشاف هذه الخفة .

الهوامش :

(١) ديوان ابي تمام بشرح التبريزي ـ تحقيق الدكتور محمد عبده عزام (القاهرة ١٩٦٤) ١٦/٣ (الرقم ٣ رقم القصيدة ، ١٦ رقم البيت) .

(٢) ديوانه ١٩/٣ .

(٣) ظاهرة (ما) في شعر المتنبي ـ مجلة الجامعة المستنصرية ـ العدد الرابع ١٩٧٣ـ١٩٧٤ وظاهرة اسم الاشارة في شعر المتنبي ـ مجلة كلية الآداب ـ العدد ١٩ (١٩٧٥ـ١٩٧٦) .

(٤) ينظر : ابو تمام الطائي ـ الدكتور نجيب محمد البهبيتي (القاهرة ١٩٤٥) ص٢٣٥ .

(٥) شرح ابن عقيل (القاهرة ١٩٤٨) ، ٤٩٣/١ .

(٦) العمدة ـ ابن رشيق ـ تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد (بيروت ١٩٧٢) ، ٣٢١/١ .

(٧) المصدر نفسه ٣٢٣/١ .

(٨) المصدر نفسه ٣٢٤/١ .

(٩) الموازنة بين ابي تمام والبحتري ـ تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٥٤) ص٢٢٥ .

(١٠) كتاب البديع ـ تحقيق اغناطيوش كراتشتوفسكي (لندن ١٩٣٥) ، ص ٢٥ـ٣٥ .

(١١) الموازنة ص ٢٢٥ـ٢٣١ .

(١٢) ديوانه ١٢،١١/٣ .

(١٣) تنظر امثلة لذلك في الموازنة ص ٢٢٨ .

(١٤) ديوانه ٤/٤٢ .

(١٥) ديوانه ٢٧/٤٨ .

(١٦) ينظر على سبيل المثال : ديوانه ٣٧/٢٩ .

(١٧) ابو تمام الطائي ـ البهبيتي ص ٢٣٧ .

(١٨) ديوانه ١٠/٤٨٣ .

(١٩) ديوانه ٧/١٩٢ . تنظر امثلة اخرى في ديوانه : ٢١/٩٦ ، ٧١/١٣٠ ، ٣٦/١٨٠ ، ٩/٤٥٣ .

(٢٠) ديوانه ٤٥/٤٨٣ .

(٢١) ديوانه ٢/٤٨٠ .

(٢٢) ديوانه ٢٠/١٩٩ .

(٢٣) ديوانه ٢٨/٨ .

(٢٤) ديوانه ٤/٧٦ .
(٢٥) ديوانه ٣٣/٩٧ .
(٢٦) ديوانه ٩/١٨٣ .
(٢٧) ديوانه ٩/١٢١ .
(٢٨) ديوانه ١١/٢٠٣ .
(٢٩) ديوانه ١/١٣٠ .
(٣٠) ديوانه ٢/١٢٥ .
(٣١) ديوانه ١/١٥٦ .
(٣٢) ديوانه ٣/٩٧ .
(٣٣) الابيات رقم ٣، ١٠، ١٩، ٢٧ .
(٣٤) ديوانه ٩،٨/٣٦٦ .
(٣٥) ديوانه ٧/١٩٢ ، ٢٠/١٩٨ ، ٨/٤٧٧ .
(٣٦) ديوانه ٣١/٤٠ ، ٥/٤٨ ، ٢٥/١٣٧ و ٣٦ .
(٣٧) ديوانه ٢١/٩٦ ، ٤٦/٩٧ ، ١٤/٣٦٣ ، ٧/٤٣٣ .
(٣٨) ديوانه ٢٠/٢٠ ، ٢٣/٧٩ ، ٦/٤٧١ ، ٢/٤٨٠ .
(٣٩) ديوانه ٢٧/٣٧ ، ٦١/١٣٠ ، ٧/١٩٢ .
(٤٠) ينظر على سبيل الامثلة : ديوانه ١٨/١١ ، ٢٨/٤٨ ، ٨/٩٠ .
(٤١) ينظر : احياء النحو ـ ابراهيم مصطفى (القاهرة ١٩٥٩) ص ٧٨ـ٨٧ .